طالب همَّاش

جِيْرَانُ النـهرِ

شعر

كتبت هذه القصائد عام2015

talebhammash@gmail.com

وتريّة ريحٍ لأحزان بلادي

روحكَ (كالكونشيرتو) المتوحشِ في الريحِ

و روحي تتأرجحُ كالهدهدِ

فوق هواءِ الوادي

روحُكَ بحريّةُ أحزانٍ

تتلاطمُ غربتها الأزليّةُ

كالأمواجِ

و روحي تتهادى كسحابةِ صيفٍ

فوق السهلِ المتهادي .

أنتَ ترخمُ أشجانكَ في الريحِ

كمزمارٍ وتريٍّ

يتنهنهُ بالشجنِ المجروحْ ..

وأنا أستنشقُ كالمخمورِ

حفيفَ الحورِ المرِّ

وتنويحاتِ القصبِ النائحِ والمبحوحْ

آهٍ من روحينِ تطيرانِ

كأحلامِ الغيمِ العابرِ

ما فوق سفوحٍ وسفوحْ

كم هيَ رائعةٌ أن تتهادى

بالتحليقِ الحالمِ

تحتَ سماءِ سعادتها الزرقاءِ

زرازيرُ الوادي !

لكنَّ المغربَ بحرُ جراحٍ منتحبٍ

يتنهّدُ دونَ حدودٍ ..

دون حدودْ !

المغربُ حزنُ البشرِ السودِ

مضاء بعذاباتِ العزلة

حزنُ البشر السودْ !

والمغربُ قطعةُ نارٍ باردةٌ

تتوهّجُ كالجمرةِ في القلبِ

الجبّارْ !

يا بحّارَ جبالِ المغربِ يا بحّارْ !

أصعبُ آهةِ حزنٍ تتنهّدُ في صدري

أصفى بركةِ ماءٍ تترقرقُ باكيةً

في أرضِ الدارْ !

أغزرُ نافورةِ دمعٍ

تذرفُ من أغزرِ جرحٍ

مطرَ القلبِ المتساقطَ

كالجمرِ الحارْ !

فهناكَ وراءَ بحيراتِ المغربِ

تنغمرُ الروحُ بِبُحْرَانِ الحسراتِ

ويهدأُ في القلبِ الحافي جبروتُ الريحْ !

ووراءَ بحيراتِ المغربِ

كعصاراتِ الدمعِ

تُراقُ دماءُ الخرّوبِ على الغدرانِ

فيغدو كلُّ المغربِ

في الماءِ الخروبيّ جريحْ !

وهنالكَ أصواتُ البلوطِ

تصيحُ بصوتٍ مرتعشٍ

ويناديكَ نداءٌ شفّافٌ

من غيرِ منادي ..

رفرفْ بجناحيكَ ،

وحلّقْ تحليقةَ (سكرانٍ) فوق جمالِ المشهدِ

في وهداتِ الوادي !

في الوادي

رجفاتُ الرمّانِ تدوّخُ روحكَ

والزرزورُ الأزرقُ نشوانَ يزقزقُ

في رأسكَ ..

والعصفورُ يصفّرُ صفراتٍ بيضاءَ ،

وبينَ حناياكَ تذوبُ حناناً

عندلةُ الحسونْ .

في وهداتِ الوادي

تتجمّعُ كلُّ دموعِ الماءِ الرقراقة

في البركِ الخضراءِ

البركةُ قربَ البركةِ ..

وتسيلُ الموسيقى النهريّةُ

في شلالِ غناءٍ موزونْ !

فلماذا تقفُ اليومَ وحيداً كالمطرودِ

أمامَ الربِّ وحزنُ الروحِ حريقٌ

في ذاكَ المرتفعِ المجنونْ ؟

اهبطْ يا بنَ غروبِ الشمسِ الخاشعَ والمحزونْ !

اهبط كي نروي روحينا

من ترعةِ فجرٍ جاريةٍ بالماءِ الرقراقِ

ونغمسَ أيدينا الشفّافةَ

في مائةِ لونْ !

اهبطْ كجناحِ الليلِ

فما زالَ يهدهدُ نفسي

جريانُ النهرِ

وتأتي الريحُ معطّرةً بعبيرِ الطيّونْ !

آهِ على بركةِ ليلٍ ترتعُ نائمةً

تحت سكينةِ هذا الكونْ !

آهِ على سنبلةٍ سكرى تهتزُّ

على زقزقةِ البلبلِ في الليمونْ !

آهٍ من أعذبِ أغنيةٍ تتعذّبُ في أعماقِ

فؤادكَ يا صاحُ

وفي أعماقِ فؤادي !

روحكَ فوق هضابِ المغربِ

طيرٌ بحريٌّ

يغمدُ دمعتَهُ المرّةَ في مقلِ الغيماتِ

وروحي راهبةٌ تترخرخُ كالمطرِ المهدورِ

على أحزانِ بلاديْ .

روحكَ تحت القمرِ الراهبِ

مترعةٌ بغديرينِ من الدمعِ ،

وروحي تهتزُّ مع الأغصانِ

كتنويمةِ ريحٍ في الأريافْ .

ما نحنُ سوى عرّافينِ

كقراءِ الريحِ الرُّحَّلِ

نقرأُ روحَ الوحشةِ

عرّافٌ يحدسُ بالموتِ ،

ويحدسُ بالغربةِ عرّافْ .

من يقصدُ داركَ عندَ عصارى

الصيفِ

ومن يقصدُ داري

عند نهاياتِ الأريافْ ؟

إنَّ هواءَ السهلِ يهبُّ رخيّاً

بين شبابيكِ الدارِ

وإنَّ قطافَ المشمشِ في الوادي

ليس يعادلهُ أيُّ قطافْ .

يا شبّاككَ من خشبِ الخوخِ

يُصفّي صمتَ الليلِ

ويا شبّاكي من خشبِ الحورِ

يصفّي غابةَ صفصافْ .

فتعالَ لنجلسَ تحت شموعِ المشمشِ

إنَّ غصونَ المشمشِ

كالأجنحةِ المفتوحةِ

شاردةٌ في طيرانٍ شفّافْ .

لكنَّ المغربَ بحرُ بكاءٍ مرٍّ ..

بحرُ حدادٍ يتألّمُ فوقَ جراحِ

العالمِ كالوترِ المشدودْ !

... شهقاتُ قلوبٍ تتمزّقُ أنفسها

في حسراتٍ سودْ !

المغربُ مأوى لبكاءِ الروحِ المهجورةِ

من بكواتِ الريحِ

ورجعِ الحسراتِ المنتحبه !

والمغربُ حقلُ أموماتٍ ضائعةٍ

تبكي بسيوفِ الدمعِ المجروحةِ

كلَّ الفتياتِ المغتصبه .

حلَّ الخريفُ

وكلُّ من نشتاقهم ياليلُ

قد رحلوا !

حلَّ الخريفُ وإنني

تتنزّلُ الدمعاتُ من عينيْ وتنهملُ !

... ...

يا آخرَ الرمّانِ

هلْ في الدارِ من أحدٍ

يرخرخُ آخرَ العبرات

في أعقابِ من هجروا وراحوا ؟

وهل المواويلُ الشجيّةُ مايلوّعُ بالحنينِ

كآبةَ الباكي

أم الريحُ التي تعوي بأوجاعِ القلوبِ

تشدُّ نعشَ الحزنِ إن صَعبتْ جراحُ ؟

أم أنهُ نعيُ النواعيرِ البعيدةِ

يملأُ وحشةَ النائي المعذّبِ

أم حداةُ الهجرِ ناحوا ؟

ريحُ المرارةِ والعزاءاتُ الجريحةُ

يا أسى التنويحِ في أرواحنا

أوّاهِ يا روحاً مليئاً بالمرارةِ لا يُراحُ !

هذي دموعُ العينِ مجروحٌ ترقرقُهَا

على مجرى الندامةِ مثل غدرانِ الغروبِ

وحزنُنا يا روحُ مدفونٌ بأعماقِ العتامةِ

لا يُباحُ !

رحلوا ...

فيا أسفَ الصديقِ على الصديقِ

إذا بكتْ في الريحِ رائحةُ الفراقِ ،

وأجملُ الأصحابِ يا صاحِ استراحوا !

عنبُ العرائشِ كالدموعِ

مقطّرٌ فوقَ الكؤوسِ

فمن سيشربُ يا أغانينا العزيزةُ

نخبَ من ذهبوا و راحوا ؟

رجعُ الطواحينِ العتيقةِ

يا ضنى الأغراب

يملأُ بالتناويحِ الطعينةِ

أرضَ هذي الدارِ

يا أغرابُ هل صوتُ الرحى في الريحِ

طعنٌ أم طواحُ ؟

رحلوا على طرقِ المغاربِ

يكتبونَ قصائدَ الحسراتِ

والندمِ البعيدِ

وليتهم يا ليلُ لا كتبوا الرسائلَ – راجعينَ –

ولا لطفلِ قلوبنا قتلوا !

... ...

حلَّ الخريفُ وكلُّ من نشتاقهم

يا شوقُ قد رحلوا !

يا ترعةَ الدمعِ التي تجري وراءَ الدارِ

باكيةَ الخريرِ

بأيّ أمطارٍ

ترخرخُ دمعَهَا الدارُ ؟

لا شجرةُ الحورِ التي تغفو بقربِ السورِ

مسموعٌ أساها العذبُ ..

لا غيمٌ يمطّرُ في الدروبِ

بأيّ أحجارٍ

تكفنُ قبرنا المهجورَ أسوارُ ؟

لاشيءَ غيرُ يمامةٍ متروكةٍ في برجها العالي

تراقبُ في الفضاءِ فراقَ من غابوا

وقافيةً فقافيةً

تدقُّ على صدورِ الفقدِ أشعارُ !

دارٌ كأنَّ هدوءها وقتَ المغيبِ

بحيرةٌ زرقاءُ

تسبحُ في تموّجِ مائها الرقراقِ أرواحٌ وأقمارُ .

هذي حكاياتُ الرياحِ

وصوتُ جرحاها يعشّشُ في الشبابيكِ القديمةِ

كالنعوشِ

فيا شتاءَ العمرِ هل بوقُ الرياحِ

ورجعُهُ

لمصيرنا المحتومِ مزمارُ ؟

اليومَ نفتقدُ البيوتَ دروبَهَا وترابَهَا

ونصيرُ أغرابَ المنازلِ

لا غريبُ الدارِ يعرفنا ولا الجارُ !

واليومَ أحزنُ كالغريبِ

على وداعٍ ضائعٍ بين المسافرِ والصديقِ

على فراقِ أحبّةِ القلبِ القدامى

كيفَ ياليلُ انتهوا حبراً على سطرِ

الأسى كيفْ ؟

نحتوا على حجرِ الشتاءِ

كآبةَ الأيّامِ وانصرفوا

سطوراً في كتابِ الصيفْ !

يا ليتهم نحتوا تصاويرَ الغيومِ

على حجارةِ عمرنا العاري

وما نحتوا كهوفَ الخوفْ !

يا ليتهم جرّوا نعوشَ الريحِ خلفهمُ ..

ولا لوداعنا احتملوا !

... ...

حلَّ الخريفُ وإنني

تتنزّلُ الدمعاتُ من عينيْ وتنهملُ !

... ...

فتعالَ يا أيلولُ واجلسْ قربَ أحزانِ

المراكبِ مثل بحارٍ قديمٍ

إنّما حانَ الرحيلُ

وكلّنا أغرابُ هذا البحرِ .. أغرابُ !

وتعالَ يا أيلولُ

هذا اليومَ كلُّ الناسِ ركّابُ !

لم يبقَ غيرُ كمنجةٍ عمياءَ

يعولُ صوتُها المفجوعُ بالألمِ الممزّقِ

آخرَ الحاراتِ

والمتأمّلُ الاعمى

يدقُّ البابَ بالمطرِ الضريرِ

لمن ستفتحُ حين يأتي البردُ يا بابُ ؟

لو أستطيعُ جلستُ

في طرقِ الضياعِ كراهبٍ أعمى

وعشتُ معذّباً أحزانَ من ذهبوا

وما آبوا !

ولعشتُ كالأشجارِ هبّاتِ الرياحِ

نحيبَهَا وحفيفَهَا

ورجعتُ مجروحاً بمن غابوا !

فاليومَ تقفرُ كالمرايا

أمسياتُ وداعنا الثكلى

ويقطرُ في فراغِ الدارِ غيمٌ

ما لهُ للدمعِ مزرابُ !

واليومَ تبتعدُ المراكبُ بالغريبِ

(رواحلاً) وقتَ المغيبِ

فكيفَ يا شيخوخةَ الأيّامِ

آلامُ المهاجرِ كيفَ تُحتملُ ؟

يا ليتني ريحٌ لأهشلَ في البراري

حافياً أمشي إلى حتفي ولا أصلُ !

... ...

حلَّ الخريفُ وهاجرَ السمّانُ والحجلُ .

... ...

يا ريحُ رفقاً بالملوّعِ وقتَ تَسْرِيَةِ الأسى

رفقاً برقراقِ العيونِ

على فراقِ الضائعينْ !

رفقاً بهبّاتِ الحنينِ

إذا بكى من فرطِ ما يجدُ الحزينْ !

لا أوبةُ الغيّابِ يرجوها الغريبُ

ولا بكاءُ القلبِ يهدأُ عن رجوعِ

الغائبينْ !

يا ريحُ ، ياحجر الرحى المجروحُ

سَرِّي الوجدَ عن نفسِ الوحيدِ

فصوتُهُ المكسورُ مملوءٌ مثاكيلا !

... ...

حلَّ الخريفُ وكلُّ من نشتاقهم

صاروا مجاهيلا !

حلَّ الخريفُ

فيا طريقَ فراقنا النائي

كفى بالروحِ تَقْتِيلا !

... ...

رحلتْ مع العرباتِ أحلامُ الرجوعِ

وليتَ أحوالَ الغريبِ تُقالُ في حالِ الفراقِ

لقلتُ في نشدانِ من ضاعوا المواويلا !

بَعْدَ احتضارِ مغاربِ الشمسِ الحزينةِ

توقظُ الغصّاتِ ذكراهُمْ

وتنتحبُ المرارةُ في نفوسٍ

إن بكوا ليلاً .. بكت ليلا !

يا آخرَ الأصواتِ في هذا السوادِ الجهمِ

يا أصواتَ من يبكونَ

من يرثي فؤاداً فاقداً

ما لوّحوا لوداعهِ بحمائمِ الأيدي

ولا رفعوا المناديلا !

الآنَ يا أمّاهُ أحفرُ بركةً

للدمعِ في يدكِ الحنونةِ

كي تغطَّ رضيعةً روحي

وأجعلُ من غدائركِ على وجهي أكاليلا .

هذي الكتابةُ يا أُخَيّةُ لا تموتُ

دموعُهَا ستضيءُ في الليلِ القناديلا !

فاقلبْ كؤوسكَ يا نديمي في المرارةِ

إن شربَ الخمرِ يوقظُ مُبْكِيَاتِ القلبِ

(أيلولاً) ..فأيلولا !

ما أوحشَ الأيّامَ بعدَ وداعهم

ما أطولَ الليلا !

... ...

حلَّ الخريفُ

فيا طريقَ فراقنا النائي

كفى بالروحِ تقتيلا !

... ...

دقتْ نواقيسُ الأسى

صوتُ الأسى مسموعْ

أوّاهِ يا قمرَ القرى

طالتْ ليالي الجوعْ

إنْ جفَّ دمعُكَ مرةً

دمعي أنا ينبوعْ

فاعصرْ دماءَ جراحهم

في صدرنا المفجوعْ

كم أوجعوا بغيابهم

طفلَ الشجى الموجوعْ

فارفعْ وداعكَ للأحبّةِ

إنَّ حبلَ نجاتنا مقطوعْ !

صيفٌ يودّعنا ويرتحلُ الصديقُ

وأجملُ الأيّامِ ترتحلُ !

... ...

حلَّ الخريفُ وكلّهمْ رحلوا .

التحديقُ من شبّاكِ الشيخوخةِ

بالغصّاتِ وضوءُ الشمسِ الغاربُ

معكوسٌ في قدحي الفارغِ

والذكرى المرّةُ

تعتصرُ الدمعَ الساخنَ

من أعماقِ العينْ !

بالغصّاتِ أودّعُ آخرَ أيّامِ الصيفِ

وأستقبلُ كلَّ خريفِ الصبرِ

بعينيّ الدامعتينْ !

وأقولُ لنفسي الأسيانةِ

يا نفسي !..

يا حقلَ حفيفٍ مملوءٍ بالريحِ

لماذا نترقرقُ بالدمعِ

على مرأى البحرِ غريبينْ ؟

ولقلبي المتألّمِ يا قلبُ

لماذا نتدفّقُ في إيقاعِ الريحِ

ونحيا أغراباً ووحيدينْ ؟

ماءُ المغربِ يرقدُ في الأكوابِ الليليّةِ

كالخمرِ الباردِ

وشجيراتُ الشوكِ الكهلةُ

تترعني بدموعِ العطشِ المعصورةِ

من مقلِ الظمآنينْ !

وأنا الباكي ما ضاعَ من العمرِ

على مجرى الجدولِ كلَّ وداعٍ

والمنشدُ أغنيةَ المغلوبِ على طولِ الشاطىءِ

كلَّ حنينْ !

لا غسلت غيماتُ البحرِ دموعي بالملحِ

ولا خاطتْ ريحُ الشتويّةِ

بالأشجانِ جراحي

آهٍ يا شتواتِ الطينْ !

تتساقطُ أوراقُ الحورِ

فتشعرني بشتاءاتِ الغربةِ والبردِ...

تهبُّ الريحُ فترتعشُ الأرواحُ

المهجورةُ في الأشجارِ ...

ينامُ العصفورُ وحيداً في العشّ

فيشعرني بالدنيا المخلوقةِ

من يأسِ الناسِ المنسيينْ !

سكنتْ رنّاتُ الأغنيةِ المجروحةِ

وتلاشى تغريدُ جداولها النهريّةِ

فاسمعْ نبراتِ رثاءٍ

تتحطّمُ بالنعي على حجرِ الحزنِ

وتنقلها الريحُ إلى كلِّ حزينْ !

آهٍ مما يجعلُ قلبَ العاشقِ يبكي..

آهٍ من رقراقِ دموعِ العينْ !

البحرُ يغطُّ عميقاً

في أحلامِ الأفقِ الغامضِ

والعشُّ الفارغُ من كلِّ الأجنحةِ الورديّةِ

يفرغُ من كلِّ عصافيرِ التينْ !

يا عشُّ لماذا تذروكَ الريحُ على الأبوابِ

وشباكُ الشيخوخةِ يرنو لرحيلِ النائيينْ ؟

ولماذا تصمتُ يابحرُ

وصمتكَ يا بحرُ حزينْ ؟

الأغاني العابرة

هناكَ في هضابنا المضمومةِ

الأهداب ..

بينَ زرقةِ الأنهارِ

واتساعِ خضرةِ السهولِ الساحره .

هناكَ فوقَ مسرحِ السفوحِ

حيثُ تسبحُ السماءُ في سلامها السعيدِ

أو تجهجهُ الشموسُ من سريرها الورديّ

كالأساورِ المصغّره ..

هناكَ نسمعُ الأغاني العابره .

وتحتَ مشهدِ الغيومِ

حينَ تسرحُ الأسرابُ في تحليقها البعيدِ

نسمعُ الأغاني في تهاديها الرخيّ

فوقَ هدأةِ الوديانِ

كالسحابةِ المسافره

.. ونسمعُ السكينةَ التي تصفّيها الحفافي

قربَ خلوةِ الهدوءِ عذبةً نقيّةً

كأنّها النسائمُ المعطّره ..

كأنّها ارتعاشةُ الغروبِ المسكرهْ .

وفي أواخرِ الخريفِ

حينَ ترسلُ الرياحُ هدهداتها

موزونةَ الهبَّاتِ

... حيثُ يُسمعُ احتكاكُ خصرِ الحقلِ

بالغروبِ

واحتكاكُ غابةٍ بغابةٍ مجاوره

سنبصرُ الهلالَ من خلالِ شاشةِ المدى

منعكسَ الحزنِ كقرصٍ من عصارةِ الأسى

على مياهِ حزننا المكوَّره ..

سنبصرُ الهلالَ صافياً

كروحنا المصوّره .

هناكَ في نهايةِ الرمَّانِ ،

في مغاربِ القرى

حيثُ يغطُّ القرويُّ ريشةَ الحنينِ

في مدامعِ الينبوعِ

تولدُ القصائدُ التي تحكي

عن القلوبِ واشتياقاتِ النفوسِ الحائره !

وحينَ تولدُ المواويلُ

التي تحكي عن العشَّاقِ

في ضوءِ الليالي المقمره

سترحلُ الأغاني نحو كوخها

العتيقْ

ويقفرُ الطريقْ

وعاشقاً فعاشقاً

نطلُّ من شبابيكِ الوداعِ

كي نراقبَ الحمائمَ المهاجره .

فنحنُ في أواخرِ القرى باقونَ

بينما الأغاني عابره .

رفقاً يا روحُ برقراقِ العبرات

ماذا يا أمَّ عذابي

ماذا يا (أُمَّايْ)؟

ماذا غيرُ فراقٍ تترقرقُ عبرتُهُ

في الروحِ

وغيرُ غناءٍ يتقطّرُ

من وجدانٍ مجروحٍ

وتنهّدِ أفئدةٍ

تتنهنهُ بين شفاهِ النايْ ؟

تعتصرينَ دماءَ الصبرِ على طبقِ الغصّاتِ

وماءَ الصبّارِ المرِّ على طبقِ الحسراتِ

وتصغينَ بقلبٍ ملتاعٍ

لغناءٍ يتنزّلُ من جوعِ الليل

على صحنِ بُكَايْ !

ما عزّاكِ

ذلُّ عزيزٍ في زنزانةِ هذا الليلِ

ولا واساكِ حزنُ ذليلٍ

تحتَ زنوجةِ هذا الحزنِ

ولا سالت عيناكِ الباكيتانِ

على كأسِ أساي !

(إبْنَاكِ) سنبلتانِ من الحزنِ

تكبّانِ على قدحِ الدمعِ

وسنبلتانِ تعبّانِ الدمعةَ

من قدحِ الغربةِ (إبنايْ)!

...سنبلتانِ تعبّانِ السكرَ سواسيةً

من نبعةِ عينيَّ صغيرايْ !

... وبكتْ روحُكِ بعد فراقِهِمَا

مترقرقةً بالعبراتِ

بكت روحي واغرورقتِ الأعينُ بالدمعاتِ ..

وآهٍ كم هوَ رقراقٌ

في القلبِ الموجعِ دَمْعُهُمَا

فعلى أيّ مقامٍ يبكي في الغربةِ

طفلاكِ يا أمّايَ وطفلايْ ؟

وفقيرةُ هذي الغربةِ أنت يا أمّايْ !

ستجرّينَ بنفسٍ مستسلمةٍ لمراراتِ الأيامِ

صغارَ مراثيكِ ...

وأجرُّ بنفسٍ مستسلمةٍ للحسراتِ

صغيراتِ أسايْ !

ستجرّينَ على دربِ المغربِ

شيخوختكِ المهجورةَ كالنعشِ الباكي

وأجرُّ على دربِ الهجرانِ المهجورِ

نعوشَ (حزانايْ) !

وتصيحينَ بصوتٍ مهزومٍ

صيحاتِ أسىً في الناسِ

فمن سيبادلُ عينيكِ الدمعَ

على فقدانِ حبيبٍ غابْ ؟

وبمن يتعزّى في ساعاتِ الذلِّ حزينٌ

حين يعزُّ على العزلةِ أن ترأفَ بالأغرابْ ؟

وبأيّ مغارةِ ليلٍ يجلسُ كالمغلوبِ

ويبكي في الليلِ مرارةَ هذي الغربةِ

من كانَ بلا أترابْ ؟

فهناكَ على كلّ طريقٍ

ولكلّ غريبٍ

ينعبُ فوقَ خرائبِ هذا الكونِ غرابْ .

رفقاً يا روحُ برقراقِ العبراتِ

على الغائبِ

رفقاً يا حزنُ بتقطير دماء القلبِ

على الغُيَّابْ !

للأيّامِ مذاقُ الدمعِ

وعبرَ الريحِ الميتةِ يعبرُ لحنُ الريحِ الموحشُ

في الحاراتِ البردانةِ

ويهزُّ على شجرِ البردِ العاري

أعشاشَ بُكايْ .

للأيامِ مذاقُ الدمعِ

وكأسُ مرارتها المترعُ لا يُسقاهُ سوايْ !

فأنا لا أسمعُ إلا نغماتٍ موجعة

تعزفها الأقدارُ السودُ

وأوجاع (مواويلٍ) مترعة بالحسراتِ

وعنّات نواعيرٍ راجعة

تمتصُّ دلاءَ دموعي ودمايْ !

فإذن ماذا يا أمَّ عذابي

ماذا ماذا يا أمّايْ ؟

ماذا غيرُ كآبةِ هذا الغيمِ الراحلِ

أكفاناً .. أكفاناً في دنيايْ ؟

ماذا غيرُ طواحِ قلوبٍ

منحوبٍ تحت حطامِ الريحِ

ولوعةِ روحٍ من حرقتها في الجمّارِ

تؤجّجُ روحَ النارْ ؟

ماذا غيرُ قصائدَ مثخنةٍ بمراثي اليأسِ

وساعاتِ وداعٍ

تترخرخُ فوق وجوهِ الرُّحّلِ

رخرخةَ الأمطارْ ؟

أيكونُ مصيركِ كالصبّارةِ في الصحراءِ

وهل صارَ مصيري

شجرةَ حورٍ عاريةً في باحةِ دارْ ؟

يا أمّايَ

وأيّةُ روحٍ جالبةٍ للآلامِ

وسوءِ الطالعِ هذي الروحُ

وأيّةُ نفسٍ منجبة للوحشةِ

نفسي المعجونة بالألمِ الجبّارْ ؟

كم دوّرنا بعد خريفِ العمر

رحى الأيامِ

لنطحنَ أحزانَ الريحِ

فلم نطحنْ غير نحيبِ الآهات المبحوحِ

على ما ضاعَ من الأعمارْ.

مرَّ الناسُ وغابوا

مثلَ ظلالِ الغيمِ العابرِ فوق جدارْ .

مرَّ الناسُ ..

وإيقاعُ البحرِ المقفرِ

يقفو إيقاعَ خطاكِ في الليلِ

وناعورُ العزلةِ يقفو بعنينِ كهولتهِ الضائعِ

إيقاعَ خطايْ !

فإذن ماذا يا أمّ عذابي

ماذا يا أمّايْ ؟

الصيفُ يرخرخُ في الكثبانِ حرارتَهُ المحروقةَ

والأملُ المهزومُ يطيرُ بعيداً

بجناحيهِ المحترقينْ .

يا أمّايَ أكلّ مغيبٍ

تبكي منكِ الروحُ ،

أكلّ وداعٍ تدمعُ منّي العينْ ؟

تغرسكِ الغربةُ كالزيتونةِ

في تربتها الثكلى

وغرابُ المغربِ يطبقُ فوق لياليكِ

ثقلَ جناحيه السوداوينْ !

مَنْ غيرُ الريحِ سينشرُ فوقَ خريفِ

العمرِ العابرِ أكفانَكِ

من غيرُ الليلِ

سيسمعُ من شبّاكِ الشتويّةِ شكوايْ ؟

..يتذكّرُ قلبي النازحُ مجروحَ مراثيهِ

فيهتزُّ معَ الريحِ

وقلبكِ لا يتذكّرُ غيرَ عزاءٍ

يُذكي اللوعةَ في مبكايْ !

يا أمّايَ أكلّ خريفٍ

تتساقطُ أزهارُ النعي على نعشِ العزلةِ

وتشيّعُ كلّ عزاءٍ

موسيقى الندمِ السوداءُ موتَ مسائي

وسكينةَ دنيايْ ؟

فالأيامُ كمنجاتٌ تتبادلُ ذبحَ

عصافيرِ القلبِ المتعبِ

والآمالُ فؤوسٌ تتبادلُ تمزيقَ

قميصِ العمر البالي

وسكاكينُ الأصواتِ السودِ

تصلصلُ في سوداءِ أسايْ !

أنتِ نزفتِ دماءكِ

في طرقِ الهجراتِ إلى المنفى

وأنا أنزفُ في طرقاتِ الليلِ دمائي

ودموعي بحثاً عن منفايْ .

وأنا أقفُ اليومَ وحيداً

عندَ نهاياتِ الليلِ

وأصرخُ صرخةَ رعبٍ يا ربّايْ !

أصرخُ ..

ماذا بعدَئذٍ ماذا

ماذا يا أمّايْ؟

موّال فراق

رقرقْ دموعَ الأسى

في الكأسِ يا وجعُ !

أو فاتركِ الروحَ

ترثي حزنَ من فُجعوا !

واعزفْ همومَ الشجى

في الناي موجعةً

وارجعْ رجوعَ غريبٍ

إن نأت ضِيَعُ !

دارت جراحُ الرحى

يا ليلُ أينَ همو ..

هل غرّبوا للسقا .. أم للغيابِ رَعُوا ؟

تلكَ المواويلُ

يا أمّي نغنّيها

لعلَّ من بَعُدَتْ أيّامهم رجعوا .

أسيانُ قلبي جريحٌ

متعبٌ ثملٌ

تنأى بروحي طيورٌ

كلّها بجعُ

نمضي حزانى

وصوتُ الريحِ يُرجعنا

مثلَ الحفيفِ إلى الحورِ الذي قطعوا

قطّعتِ قلبي بحزنٍ منكِ

أعرفه

يا شجرةَ الدارِ

من تبكينَ ما سمعوا .

كلُّ الكآبةِ

أنَّ القلبَ بعدهمو

طيرٌ يموتُ

ونعيُ الريحِ مرتفعُ .

كلمات الرثاء الكبيرة

يا ليالْ !

يا صلاةَ الطفولةِ وقت طلوعِ الهلالْ !

سامحيني على كلّ ما رقرقتهُ المرارةُ

من أدمعي ،

سامحيني على وحشتي واغترابي

على ندمي في الليالي الطوالْ !

سامحي دمعةً تترقرقُ ساخنةً

فوق خدِّ أبيكِ

فإنّ دموعَ الأسى عذبةٌ يا ليالْ !

كلماتُ الرثاءِ الكبيرةُ مكتوبةٌ

في جدارِ الرحيل بحبرِ الحدادْ ..

كلماتُ الرثاء الكبيرةُ

يقرأوها الليلُ

تحت سماءٍ من الحزنِ

سَوَّدَهَا بالنحيبِ السوادْ .

وسكينةُ قلبي تموتُ بعيداً عن الدارِ

آهِ يا جمرةَ الاغترابِ التي

أحرقتها الحرارةُ حتى الرمادْ !

لا سَكَنَّا البيوتَ التي لملمتنا صغاراً

ولا تركتنا رجومُ الجرودِ الحزينةُ

نسكنُ أعلى التلالْ !

آهِ يا زهرتي يا ليالْ !

حسرةً حسرةً ورّثيني الأسى والسهادْ !

دثّريني بشلالِ شعركِ

بردانُ مثل الغريبْ !

كبرتْ عزلتي في الليالي

وقد ماتَ من ماتَ

والآخرونَ مضوا تاركينَ

كؤوسيَ مملوءةً بالرمادْ!

والشتاءُ الذي أرضعتني مراثيه

مرَّ الدموعِ

وألقى عليّ عباءةَ عتمتهِ في المغيبْ

يترخرخُ ماءُ مزاريبهِ أسوداً كالمدادْ !

صارتِ الريحُ ذات الحفيفِ المعذّبِ

راهبتي المشتهاةَ

وصارت غيومُ الخريفِ

مصاحفَ قلبي الكئيبْ !

... أودعيني المآتمَ

بين الصغارِ الوحيدينَ والفتياتِ اليتيماتِ

كي نتطلّعَ أغربةً

من زجاجِ الشبابيكِ للعابرينْ !

نتشهّى الشموسَ التي تتلامعُ بين العيونِ

كزهرٍ حزينْ !

نتطلّعُ في وحشةٍ وحدادْ ..

لشحوبِ المساءِ على أوجهِ الراحلينْ .

أودعيني ...

فغربتنا في الليالي الجريحةِ ليست تُقالْ !

أسفاً يا ليالْ!

يا صلاةَ الطفولة وقتَ طلوعِ الهلالْ .

لم يعدْ قمرُ المغربِ العذبُ يطلعُ من ناظريكِ

كقرصٍ من البرتقالْ .

أسفاً يا ليالْ .

البكاءُ على بابِ الغروب

يا ليلُ ترقرقْ بدموعكَ

يا ليلُ ... فراقاً بعدَ فراقْ !

ما عادَ الروحُ يطيقُ الوحشةَ

والوحشةُ ليسَ تُطاقْ

تحتَ القمرِ الغاربِ

قلبٌ يتدفّقُ بالدمعِ الساخنِ

ــ آهٍ يا ربُّ ــ

وللغربةِ آخرُ أغنيةٍ

تنتحبُ الآنَ على الأشجارِ المنتحبه !

آهٍ يا ربَّ الغربةِ

ما أصعبَ هذي الغربه !

ما أصعبَ هذا اليأسَ العاقْ !

ألفُ كمانٍ تتألّمُ موسيقاهُ

المصلوبةُ بالأصواتِ السودِ

وألفُ غرابٍ

يغرزُ مخلبَهُ الجائعَ في النفسِ المكتئبه !

آهٍ يا ربَّ الغربةِ

من يرحمُ روحَ الراهبِ

حين تحيطُ وحوشُ الوحدةِ

كالأشباحِ مراثيهِ

ويغدو منتصفُ الليلِ الموحشُ

نعشاً لمراراتِ الروحِ المغتصبه ؟

من يرحمُ روحَ الراهبِ

حين تموتُ من الإرهاقْ ؟

مغترباً وسطَ رياحِ الأرضِ الأربعِ

يرتفعُ البحرُ بإيقاعِ الحزنِ الضائعِ

فوق دماغي الميتِ ،

ويهطلُ في شلّالِ الريحِ

شقاءُ الأرواحِ المغتربه !

آهٍ يا ربَّ الغربةِ

ما أصعبَ هذي الغربه !

ما أصعبَ أن تتماوتَ ناياتُ الألمِ الليليّةِ بالأشجانِ ،

وتغرورقَ كلّ مآقي الغيمِ المتعبِ بالعبراتِ المنسكبه !

ما أصعبَ أن تتصاعدَ كلُّ الأصواتِ المتألّمةِ المرّةِ

من أرحامِ الآبارِ

كصوتِ رجاءٍ محترقٍ

يترقرقُ بالألمِ الشاقْ !

فترقرقْ بدموعكَ يا قلبُ فراقاً بعد فراقْ !

هرّت أوراقُ الحورِ على أرصفةِ الدارِ المهجورةِ

فبكيتُ وحيداً في هبّةِ ريحٍ يا دارْ !

هرّتْ أوراقُ الحورِ

وصارَ غناءُ البلبلِ

عند نهاياتِ الأشجارْ !

آهٍ ياهدآتِ المشمشِ

آهٍ يا هدآتْ !!

هرّت أوراقُ الحورِ...

وأيلولُ المتعبُ يكتبُ سيرتَهُ المجروحةَ

بينَ مماشي المشمشِ بالدمعِ

ورخرخةِ الغيماتْ !

آهِ على هبّةِ ريحٍ

هائمةٍ في سهلِ الآهاتْ !

آهِ على تنهيداتِ حفيفٍ

يحملها الشجرُ النائمُ في أحلامِ الريحِ

مع الهبّاتْ !

آهِ على رفِّ حمامٍ

يتهادى فوق حفافي الوادي

شَلْحَاتٍ .. شَلْحَاتْ !

آهٍ من أشواقٍ

ترقدُ في أعماقِ القلبِ الحافي

وتهزُّ بكاءَ الروحِ من الأعماقْ !

يا قلبُ فكيفَ تطيقُ الغربةَ

والغربةُ ليسَ تُطاقْ ؟

صرخاتُ الغربةِ ريحُ شتاءٍ متوحّشةٌ

تتمزّقُ في روحِ الباكي

كشرارةِ نارْ !

صرخاتُ الغربةِ يا ليلُ

قصائدُ نعيٍ يتعلّقُ مطلعُهَا الطلليُّ الفاجعُ

كالنعواتِ على كلّ جدارْ !

صرخاتُ الغربةِ صوتُ صهيلٍ مكسورٍ

في جنباتِ الوعرِ

ورجعُ نحيبٍ حارْ !

صرخاتُ الغربةِ في إيقاعِ اليأس المتعاظمِ

تتلاطمُ كالأمواجِ المصطخبه !

آهٍ يا ربَّ الغربةِ

ما أصعبَ هذي الغربه !

حزنُ القلبِ عظيمٌ

وعظيمٌ في هذي اللحظاتِ الصعبه !

هبّتْ رائحةُ القبرِ مع الريحِ

وسالَ نواحُ كمنجاتِ النعي

على نهرِ النغماتِ المنكسره !

هبّتْ رائحةُ القبرِ

وحلَّ سكونُ الفصلِ المظلمِ

في أروقةِ الموتِ السوداءِ

ولاحتْ كخريفِ الأعمارِ

نهاياتُ الأيّامِ المحتضره !

الآنَ سترقدُ في أعماقِ الروحِ المتعبِ

كلُّ أسابيعِ اليأسِ المنطمره ...

ويعودُ الكونُ إلى وحدتهِ المدفونةِ

في الأعماقْ !

حلَّ أوانُ الفصلِ المظلمِ يا روحُ

ودقّتْ ساعاتُ العتمةِ

دقّتَها الميتةَ

في جمجمةِ القلقِ العاقْ !

يا قلبُ ترقرقْ بدموعكَ

يا قلبُ .. فراقاً بعدَ فراقْ !

صورُ الأحبابِ مسافرةٌ

تتراءى كطيورِ المغربِ في عينيّ

وتنحلُّ مع الدمعِ عزاءً

لفؤادٍ يتعزّى في كلِّ عذابْ !

صورُ الأحبابِ مسافرةٌ كطيورِ الهجرةِ

في عينيّ

وراجعةٌ كلُّ تصاويرِ الأغرابْ .

آهٍ يا أغنيةَ الريحِ المحترقه !

ما عادت تتراءى في أعيننا

غيرُ تصاويرِ الرُّحّلِ والغيّابْ !

فلأيّ مصيرٍ تغرقُ شمسُ الغائبِ

في أجواءِ الشفقه ؟ ..

وتصيحُ نصوبُ الصخرِ مسامعها

لفؤوسٍ تتعاركُ كالصيحاتِ

على سندانِ القدرِ العنّينْ ؟

وأنامُ على صدركِ يا ريحُ غريباً

مملوءاً بالأشجانِ

أغنّي أغنيةَ الحيرانِ مع الريحِ

وصوتُ هزيمِ الريحِ حزينْ !

تهتزُّ شجيراتُ الشوقِ فتشتاقُ الروحُ

وتنسابُ دموعُ الحزنِ على سكّينْ !

يا بَكْوَةَ روحٍ تتنهنهُ في العتمةِ

وا أسفاهُ لقد صارَ القلبُ الساهي

كتلةَ طينْ !

ما عدنا نكتبُ اسمَ الحزنِ الضائعِ

بالشوقِ على طرقاتِ العشّاقْ !

.. صورُ الأحبابِ مسافرةٌ

كتوابيتِ الموسيقى الليليّةِ

وضريحُ الغربةِ ضاقْ !

يا قلبُ ترقرقْ بدموعكَ يا قلبُ

فراقاً بعدَ فراقْ !

الغربةُ صرخةُ روحٍ

تتمزّقُ في جبروتِ الأرضِ

وألفُ جريحٍ يتألّمُ في أغنيةِ الترحالِ المرّةِ

ألفُ جريحْ !

الغربةُ شَبَّابَاتٌ تتناومُ بالأشجانِ

وتندائحُ بكاويها المكلومةُ

في نهرِ الحسراتِ مع الريحْ !

الغربةُ صحراءُ ذئابٍ تتراكضُ بين جرودِ الصبّارِ

لشربِ دماء ضحاياها المغتصبه !

ما أقسى أنْ تهتزَّ على صرخاتِ الريحِ

جميعُ حقولِ القمحِ المنتهبه !

يا قمرَ النورِ الربّانيّ الهادىءَ

رخرخْ نورَكَ فوق دماغي الميتِ

وأنقذني من هذي اللحظاتِ الصعبه !

حزنُ القلبِ عظيمٌ

وعظيمٌ صوتُ اليأسِ الغائصُ

في قاعِ السأمِ العاقْ !

آهٍ كيف تجاوبَ صوتُكَ يا ربانُ

بكلِّ عذاباتِ النفسِ المستلبه !

آهٍ من صحراءِ بكاءٍ تتحطّمُ تحتَ نحيبِ الموجِ

ومن أفئدةٍ تبكي نادمةً يا ربُّ

من الإرهاقْ !

ما من ألمٍ يعتصرُ الروحَ الفاقدَ

أكثرَ من مطرِ الليلِ على

شبّاكِ فراقْ !

فتألّمْ يا قلبُ من الأعماقْ !

الكتابة بالحبر المجروح

من أوجاعِ حواكيرِ القمحِ

إلى شجنِ الأعشاشِ المجروحةِ

تحت جوانحِ أشجارِ الكينا

كم هوَ مرٌّ وجريحٌ صوتُ الريحِ

وكم هيَ هادئةٌ تنهيداتُ الغابة في وادينا !

كلّ مغيبٍ

حينَ يفيقُ بكاءُ القلبِ

ننوّمُ صوتَ الريحِ المتعبَ

في أعشاشِ الليلِ ليرتاحَ من الحسراتِ .

فصوتُ الريحِ حفيدُ (بكاوينا)!

ونَهزُّ سريرَ الليلِ

على إيقاعِ الموسيقى النعسانِ

لتغفو عند نهاياتِ الناياتِ أغانينا .

فأماسينا الملآى بالحزنِ

نقدّسُ فيها الحزنَ

لأنَّ غريباً أبديّاً

يتعذّبُ كل مساءٍ فينا !

أحزانُ قرانا وتريّاتٌ حيرى في الريحِ

وآهٍ كم هوَ محزونٌ وترُ الأهاتِ

المشدودُ على شجرِ المرّانِ

ووشوشةُ الحورِ المبحوحةُ بين حفافينا !

نحنُ كتبنا الشعرَ بحبرٍ مجروحٍ

وجعلناهُ مراثي

تترقرقُ كالقطراتِ المرّةِ

كلَّ عزاءٍ بين مآقينا !

نحنُ نربّي الأشجارَ لتصبحَ أعشاشَ

هديلٍ للريحِ

فهدهدةُ الحورِ تعلّمنا التنهيداتِ

وحنجرةُ الصفصافِ تعلّمنا نهنةَ الأهاتِ

ونسماتُ الصيف تعلّمنا

كيفَ تطيبُ الغفوةُ

تحت جوانحِ أشجارِ الكينا .

ونربّي الأصواتَ المكسورةَ

بين حواكيرِ الليلِ

ليبكي المغلوبُ فراقَ أعزّاءِ الناسِ

فيا أسفَ الأيامِ على قدّاسِ أماسينا !

نحنُ نغنّي أغنيةَ الغيمِ الراحلِ في أيلولَ

وأغنيةَ الحزنِ الراجعِ في تشرينَ

ونرحلُ كلَّ شتاءٍ كالرهبانِ

إلى أكواخِ مشاتينا .

موسيقانا ناحبةٌ

مثل أنينِ القصبِ المبحوحِ

وإيقاعُ مراثينا

مثلَ نواحِ الأشجارِ المشبوحِ

جريحٌ يتمايلُ قربَ جريحْ !

في أحضانِ حقولِ الحنطةِ

ترقدُ أعشاشُ طفولتنا

ومراثي شيخوختنا

تتأوّهُ في أعشاشِ هبوبِ الريحْ .

تأخذنا أمواجُ الحنطةِ

في الإيقاعِ الحيّ

لأريافِ الحزنِ الحيرى

ويهزُّ الأوتارَ الأعمقَ في الروحِ

حفيفُ الشيحْ !

بأيادينا البيضاءِ نَهزُّ الأشجارَ الليليّةَ

لنهدهدَ بالصوتِ الأسيانِ

قلوباً متعبةً

وعلى ذاكَ الصوتِ

تلوّح آسيةً لوداعِ الأيّامِ أيادينا .

يا أسفَ الأيامِ على غربتنا

يا أسفَ الأشجان علينا !

بفناجينِ الدمعِ

نجمّعُ ماءَ مغيبِ الشمسِ

لأنَّ المغربَ ليسَ سوى ماءٍ مذروفٍ

يدمعُ من شريانِ مراثينا !

دمعتنا تتغرغرُ ساخنةً

فوقَ خدودِ الندمِ التعبانةِ

لانطلبُ من ماءِ العينِ سوى

أن يغسلَ من صدأ الأحزانِ مآقينا !

...نتمشى كالسعداءِ سكارى

بين مماشي الماءِ الزرقاءِ

لأنَّ وجوهَ الغيّابِ الحلوةَ

يعكسُهَا ماءٌ رقراقٌ بينَ سواقينا .

الكونُ لهُ سرٌّ في صوتِ الشحرورِ

ونحنُ نقدّسُ هذا الصوتَ

ونسمعُهُ بينَ ينابيعِ الماءِ

ولكنْ حينَ تموتُ شحاريرُ النهرِ

تموتُ جميعُ أغانينا .

تحتَ سماءِ الليلِ المتكوّرةِ الزرقاءِ

تروقُ لنا الأحلامُ

فنغفو بقلوبٍ صافيةٍ

فوق سطوحِ العليّاتِ

ونحلمُ أحلامَ محبّيْنْ .

وبأعيننا البيضاءِ

نحدّقُ في قمرِ الصيفِ

فيجري تيّارُ النورِ الرائعُ

في أعماقِ نواظرنا جريانَ النهرِ

وتسري فينا كرنينِ الأجراسِ

أحاسيسُ قلوبِ السكرانينْ .

إيقاعُ عشيّاتِ الصيفِ

الهادىءُ إيقاعُ مسرّتنا ،

وسكينتنا تتلاشى كالأهاتِ الحلوةِ

بين مماشي التينْ .

أغمارُ القمحِ تذهّبُها أجملُ شمسٍ

بين روابينا

ودموعُ الضوءِ تقطّرها صافيةً

كلُّ مصابيحِ السهرانينْ .

إنَّ منازلنا المرفوعةَ فوق الوعرِ

محدّبةٌ كقبابِ الكونِ النائمِ

فوق قلوبِ الناسِ

وأكبادِ المجروحينْ .

اللونُ الأبيضُ

لونُ مناديلِ الأعراسِ الشفّافةِ

والأزرقُ لونُ مناديلِ وداعِ الأحبابِ

وآهٍ من لونِ المغربِ

يحملنا في شلّالِ حنينْ !

زرقاءُ هي الأرضُ المنحوتةُ من طيبتنا

والريحُ خيوطُ الأشجانِ الموصولةُ

بينَ شبابيكِ الفلاحينْ .

كلَّ مساءٍ نرفعُ بالصوتِ المنغومِ

أغانينا لليلِ ..

نغنّي كالغيماتِ المتطايرةِ التنهيداتِ

على أغمارِ القمحِ

وحينَ تلذُّ لنا الموسيقى

نعزفها بأصابيعِ الريحِ

على القصب الغافي

فنطيّرُ أسراباً ، ونلمُّ حساسينْ .

فإذا بكتِ الأمطارُ العطشى

كجلابيبِ الصحو المثقوبةِ بمناقيرِ البرقِ

فتحنا كلَّ خوابينا .

وإذا حزنَ العاشقُ

صارت كلُّ مياهِ الينبوعِ دموعاً

وإذا حزنَ الشاعرُ

راحت تتأوّهُ في أجواءِ المغربِ

كلُّ غصونِ الكينا

مترعةٌ بالغصّاتِ مواجعنا

غارقةٌ بالعبراتِ مآقينا .

حمام الوحشة الزاجل

سلاماً بالأسى الصافي

لمن صاروا مراثي

بعدما غنّوا المواويلا!

... لمن ربّوا البلابلَ

فوقَ أعشاشِ الغروبِ

وحينما حانَ الوادعُ

تطايرتْ أرواحهم

في المشهدِ الباكي مناديلا !

سلاماً بالأسى الصافي

لمن حملوا على أكتافهم

حزنَ الخريفِ

وخلّفوا شيخوخةَ الأيّامِ في كوخِ الشتاءِ

ونَصَّبُوا أحزانَهم فينا تماثيلا !

.. لمن رجعوا إلى بيتِ العذاباتِ العتيقِ

وعلّقوا أعشاشَ وحشتهم

على شجرِ العشيّةِ

مثلَ أعشاشِ البلابلْ !

(سلاماً من صميمِ القلبِ)

للموتى الذينَ تقمّصوا شجرَ الظلامِ

وأصبحوا رهبانَ هذي الريح

في طرقِ الرواحلْ !

لمن زرعوا غراسَ الدمع

في كأسِ العيونِ

وحينما انسكبَ الوداعُ

مدامعاً ورديّةً

جمعوا سنابلَ زعفرانٍ للأصائلْ !

سلاماً بالأسى

يا صاحبَ الحزنِ البعيدِ

كتبتَ وجدكَ بالرسائلِ كالغريبِ

ولم نجدْ من بعدِ فقدكَ

غيرَ تعزيةِ الرسائلْ !

سلاماً يا حنونَ الصوتِ

كالناياتِ

.. من رعتِ الربابةُ قلبَهُ المجروحَ

بالوترِ الحنونِ

وروحهُ في ذلكَ

المِوّالِ راحلْ !

طريقُ الحزنِ مهجورٌ على دربِ الغروبِ

وآخرُ العرباتِ لمْ ترجعْ

وما تلكَ الغيومُ

سوى حكاياتِ الرحيلِ

(رَوَاحِلٌ) تقفو رواحلْ !

فيا أمّي

يذوبُ الدمعُ في عينِ الغريبِ

ولا تذوبُ دموعُ من تركوا المنازلْ !

فيا ليتَ الذينَ تغرّبوا

قالوا وداعاً

قبل أن يمضوا إلى مدنِ الغيابِ

وليتَ لم نرسلْ

ونحنُ نشيّعُ الأيّامَ بَعْدَهُمُ

حمامَ الوحشةِ الزاجلْ !

وداعاً بالأسى الصافي

لمن ملأوا سماءَ المغربيّةِ بالوداعِ

وسافروا عنّا سراعا !

.. سراعاً أطفأوا سُرُجَ العشيّةِ

واختفوا في الليلِ

والطرقِ البعيدةِ

ليتهم أخذوا ضياءَ عيوننا الثكلى

متاعَا !

رأيناهمْ يدقّونَ الرياحَ

على سنادينِ النحيبِ

ويحملونَ – محدّبينَ – على ظهورِ العمرِ

أثقالَ الهمومِ

وغربةُ الأيامِ تزدادُ اندفاعا .

وداعاً بالأسى الصافي

لمن تركوا الصدى السكرانَ

يسرحُ في شوارعنا العتيقةِ

والمدى الأسيانَ يزدادُ اتساعا !

فوانيسُ المساءاتِ الحزينةُ

تستديرُ بضوئها المكسورِ

نحو رحيلهم

من علّمَ المصباحَ أن يبكي التياعا ؟

غدتْ أكواخهم في الليلِ مشتى للغيومِ

ومن مضوا

يا ليتهمْ رجعوا

وليتَ الشوقَ لم ينشرْ

إلى أعشاشهم

في ذلك المنأى الشراعا !

فيا أمّي

تركنا العمرَ مجروحاً على الحيطانِ ،

ما قلنا لتلكَ الدارِ يا أمّي

وداعا !

ومن نَحَتُوا حروفَ الليلِ في أبوابِ غربتنا

أباحوا حزنَنَا للريحِ..

يا أمَّ الحزانى

في عيونِ الناسِ كيفَ الدمعُ ضاعا ؟

فيا ضوءَ المصابيحِ اتئدْ بالضوءِ

كي نُلقي على الماضي الوداعا !

ترجيعٌ على وترٍ جريحْ

أزفَ الرحيلُ وحزنُ روحكَ لا يُرَاحُ

وقلوبنا ياريحُ تشربُها الجراحُ !

أزفَ الرحيلُ عن المطارحِ

كيفَ يا كهفَ الصدى

صراخاتُ وحشتنا تُصاحُ ؟

صوتي على من غابَ مجروحٌ

ونعيُ الريحِ يرثي نأي

من بَعَدُوا وراحوا ..

أبكاكَ يا ألمي الشجى

والحزنُ إن نزفتْ دماءُ القلبِ يا ألمي يُناحُ !

عزفوا على وترِ الرياحِ

جراحنا

وديارنا كالقفرِ تُوحشها الرياحُ

بعدَ الأسى لا مستراحُ لروحِكَ المكسورِ

من بعدِ الأسى لا مستراحُ

يا ليتَ غربتنا على هذا الترابِ

وعمرنا كالرملِ تمحوهُ الرياحُ

أغنية الريح المحترقة

ما من (أحدٍ) بعدَ الآنْ .

ما من (أحدٍ) إلّا كهلانِ

يسيرانِ على مهلٍ

في أحياءِ العتمةِ

مأمورُ الوحشةِ والليلُ الهرمُ التعبانْ

... كهلانِ يسيرانِ غريبينِ على دربِ الدمعِ

فقيراً في رفقةِ سكرانْ !

وأنا الرائي ظلَّ غريبٍ

يتطاولُ تحتَ غروبٍ محتضرٍ

ويغيبُ كنهرِ المنفى

بين شتاءاتِ العزلةِ

ولياليِ الفزّاعاتْ .

أسألُ :يا جوّابَ الليلِ العابرَ

عندَ المغربِ أطرافَ الحاراتْ ...

مخذولاً .. مغلوباً .. مجروحاً .. تعبانْ !

أينَ بكى الناسُ

وفي أيّ طريقٍ راحَ أعزّاءُ الناسِ

وما تركوا من آثارِ العمرِ سوى

مقلِ الدمعِ المطبوعةِ في الجدرانْ ؟

ماتركوا غيرَ مواويلِ فراقٍ

تشكو الوحشةَ والغربةَ والوحدةَ

في عتماتِ الليلِ ،

و روحي البردانةِ في شتويّةِ حزنٍ

بردانْ !

ولماذا كلُّ حقولِ المغربِ يغمرها الحزنُ

وكلُّ الأصواتِ الأسيانةِ

تخرجُ من حنجرةِ الأرضِ المبحوحةِ

في ليلِ الحسراتِ السكرانْ ؟

أين بكى الناسُ

وراحَ أعزّاء الناسِ

وأيّةُ أرواحٍ تائهةٍ بين خرائبِ هذا الكونِ

تطوّفُ كالغربانِ المهجورةِ

في شيخوخةِ أشجارِ المرّانْ ؟

وتدوسُ على دمعكَ كلُّ الأقدام الرثّةِ

يا صبّارةَ حزنٍ تترخرخُ بالدمعاتْ !

في أيّ دروبٍ رحلتْ بالأحبابِ العرباتْ ؟

هل نعسوا في هبّاتِ الريحِ

مع الأنّاتِ

وناموا كالأشجار البريّةِ بين مئاتِ التنهيداتْ ؟

هل قرأوا كالغيّابِ مكاتيبَ الدمعِ

وذابوا في ظلمةِ ما بعدَ الأهاتْ ؟

أم وقفوا كتماثيلِ العطشِ الليليّةِ

في عتماتِ شتاءٍ مهجورٍ

منتظرينَ المطرَ الظمآنْ ؟

يا قلبُ لقد ضاعَ طريقُ العودةِ

يا قلبُ فكيف تطيقُ مرارةَ هذا الهجرانْ ؟

يا من تمشي كالضائعِ ظمآنَ الروحِ ، ضريراً

تحت أماسي الحسراتِ السكرى

وتدقُّ على أصحابِ الأمسِ

جميعَ البيبانْ !

الآنَ وقد فاضَ أسى الليلِ

وجمَّ الحزنُ عليكْ !

ستمرُّ غريباً قربَ سياجِ الدارِ الموحشِ

والدمعةُ ساخنةً تتغرغرُ في عينيكْ !

ستمرُّ على الأحياءِ الميتةِ

مثلَ غريبِ الليلِ وتبكي حاجةَ روحكَ

كالمغلوبِ على تكويرةِ كفّيكْ !

وتصيحُ بصوتٍ منتحبٍ تحتَ هطولِ الريحِ

بكلِّ أساها أجراسُ مراثيكْ!

ستصيحُ بصوتِ أساكَ

بلا جدوى

وتردّدُ أصداءَ صياحكَ باليأسِ صحاريكْ !

واليومَ ينامُ بنوكَ بعيداً عنكَ

ولا تعرفُ في أي مكانٍ في الأرضِ

سيدفنُ ليلُ اليأسِ بنيكْ !

لكأنَّ صراخكَ في هذا الوعرِ المقفرِ

يا محراثَ الوحشةِ

يحرثُ في حقلِ الريحِ قبوراً

ليواريكْ !

كالراهبِ أنتَ تخيطُ خريفكَ

من أكفانِ الشجرِ العريانِ

فتعصرُكَ الغصّاتُ

وتسقطُ أوراقُ الأملِ المصفرّةُ

كالأيتامِ عليكْ !

الآنَ وقد فاضَ أسى الليلِ

وضمّكَ كالشحّاذِ وجاقُ النارْ

ستهمهمُ في همسٍ مبحوحٍ :

ضاعَ طريقُ العودةِ يا روحُ

فكيفَ تفارقُ هذي الدارْ ؟

يا طفّارَ الليلِ المتمايلَ في ساعاتِ

الحزنِ الليليّة كالمخمورِ

وصوتُ أساكَ يسيلُ مع الريحِ

رخيّاً وحنوناً وحزينْ !

هل هبّتْ نسماتُ الليلِ عليكَ

برائحةِ الريحانِ

وأنتَ تمرُّ بقربِ الدارِ

وهاجتْ بين جوانحِ روحكَ ؟

يا ريحانَ حنينْ !

هل هزّتكَ تباريحُ الشوقِ

الهزّةَ تلو الهزّه ..

وارتعشتْ فيكَ التنهيداتُ

النهدةَ تلو النهده ..

وتهاديتَ مع الهدآتِ الحلوةِ

في أفياءِ بساتينِ التينْ ؟

وهلِ اشتنشقتَ عبيرَ الليمونِ المزهرِ كالمخمورِ

ورشّتْ في الصبحيَّةِ زهراتُ اللوزِ عليكَ

دموعاً وحساسينْ ؟

آهِ على لحنِ حفيفِ الحورِ الجارحِ في الدارِ

وهدهدةِ الريحِ المتطايرةِ الآهاتِ

على أحلامِ الليليينْ !

آهِ من العبراتِ المرّة

حينَ يهزُّ مراثيكَ الشوقُ

فتبكي وتغنّي مشتاقاً للدارِ

وتغرقُ باستغراقٍ ورضى

في لحنِ وداعٍ حيرانْ !

آهٍ يا قلبُ لقد ضاعَ طريقُ العودةِ

يا قلبُ

فكيف تطيقُ فداحةَ هذا الخسرانْ ؟

يا جوّابَ الليلِ الجوعانْ !

الغربةُ يا جوّابُ غرابٌ

يغرسُ منقارَ الوحشةِ في القلبِ الحافي

والكلماتُ السوداءُ تحطُّ كغربانٍ راهبةٍ

فوق جلالِ الصلبانْ .

فلمن سنقولُ وداعاً

حين يعزُّ على الروحِ مفارقة الروحِ

وتصرخُ ريحُ الوحشةِ صرختها المشؤومةَ

ما من أحدٍ بعد الآنْ .

يا طفّارَ الليلِ

تعالَ لنجلس تحت نحيبِ الشجرِ العريانِ

ونسمع تشييعَ الريح لنعشٍ

يتعزّلُ في بيت ترابْ !

.. نروي القصصَ المجروحةَ

عن أحبابٍ جرحوا دمعةَ عينيكَ وعينيْ

وارتحلوا نحو عرازيلِ الوحشةِ كالعزّابْ !

و تعالَ نراقب من شبّاك العمر المهجورِ

كآبةَ هذا العالمِ كالأغرابْ !

فالدنيا قبرٌ مفتوحٌ في الليلِ

وفي هدآتِ الليل

يعودُ الحزنُ على الغيّابْ !

... الدنيا قبرٌ مفتوحٌ لتباريحِ الشوقِ

وقد هاجت هدهدةُ الريح على الأبوابْ !

أنتَ الغامضُ تسمعُ وشوشةَ الريحِ ،

وهمهمةَ البحرِ الأبديّةَ

والكونُ بأجمعهِ في قلبكَ

مهزومٌ وحزينٌ يا جوّابْ .

وأنا كالراحلِ أسمعُ رجعَ غناءٍ آتٍ من جهة البحرِ

وأبصرُ في الأفق الأزرقِ قاربَ (قارونَ) الحطّابْ .

يا هواءُ حوّلْ الحورَ إلى نايات!

أغرابٌ ..وبعيدونْ !

أغرابَ نراقبُ من شبّاكِ الهجرةِ

شيخوخةَ أعمارِ الناسِ

ولا نعرفُ أيَّ نهاياتٍ

ينتظرُ الرهبانُ الليليّونْ ؟

لا نعرفُ أيّ خريفٍ محتضرٍ

ينتظرُ العجّزُ والهرمونْ .

أغرابَ نراقبُ من شبّاكِ الغربةِ

كيفَ يغورُ المغربُ

خلف جبالِ الليلِ ،

وتغرقُ أضواءُ قرانا كالأديرةِ المهجورةِ

في جوّ الحزنِ

وكيف سيجلسُ راعٍ مكتئبٌ

كي يتأمّلَ في مرآةِ العمرِ

كآبةَ هذا الكونْ !

كلَّ خريفٍ حين تؤوبُ حوانيتُ الريحِ

نبيعُ سلالَ الحزنِ الملآى بالآهاتِ

ونبتاعُ مواويلَ وداعٍ

لنرافقَ بالصوتِ الصادقِ

غربةَ من يبكونْ !

كلَّ مغيبٍ

تمسحُ أرملةُ الفقرِ فوانيسَ الفقراءِ

وتغرقُ في سيرورةِ نورٍ جاريةٍ

متذكرةً وحشةَ من يأتونَ ويرتحلونْ !

وتسافرُ في الساحاتِ المتروكة

مالئةً بأغاني الشكوى كلَّ الليلِ

وبالصوتِ المترعِ باللوعةِ والإشفاقِ

تُسَرّي الهمَّ عن الأنفسِ

ذاتِ الحسراتِ المكسورةِ

والألمِ المكنونْ !

كلَّ مغيبٍ

تجلسُ أرملةُ الفقرِ أمام رحى الأوجاعِ

وتطحنُ بالتنويحِ المبحوحِ

نحيبَ القصبِ المجروحِ ،

و بالتنويحِ المرِّ أسى الروحِ

فأوّاهٍ يا صوتَ الموسيقى المطعونَ

بأيّ أغاني يتعزّى في البعدِ الملتاعون ؟

أوّاهٍ يا صوت الموسيقى

كيف تكونُ الغربةُ في رقراقِ الدمّ القاتمِ

كيفَ تكونْ ؟

في حقلِ الآهاتِ يسافرُ تشرينُ

وفي نهرِ التنهيداتِ التائهِ

ترتحلُ الشتويّةُ باكيةً بكآبتها أغربةَ الناسِ ...

وبعدَ فواتِ الصيفِ

ينامُ يراعُ الدمعِ على سطرِ الحسراتِ المحزونْ !

أغرابٌ وبعيدونْ !

أغرابٌ شَتويُّونْ .

شَتويُّونَ من الوحشةِ والبردِ

ونحتِ توابيتِ العمرِ على الجدرانِ

يثقّبنا مطرُ المغربِ بالدمعِ

وغيرَ الماءِ اليائسِ لا يَسْقينَا !

شجراتُ الحورِ تنوحُ مجرّحةً في حوشِ الدارِ

وفي الأشجارِ العريانةِ

كلُّ شفاهِ الريحِ المهزومةِ تبكينا !

شتويونَ نجمّعُ ماءَ أسانا الأسودَ

في محبرةِ الليلِ السوداءِ

ونكتبُ بالحبرِ المذروفِ

على الأبوابِ المهجورةِ أبياتَ مراثينا !

شتويونَ ومن أفرحناهم في الصيفِ

أواخرَ أيّامِ الشتويّةِ أبكونَا !

آهٍ منهم .. آهٍ منّا !

يا أسفَ الأيّامِ عليهمْ

يا أسفَ الأيّامِ علينا !

بجراحِ الروحِ العشرةِ نهتزُّ مع الريحِ مجاريحَ

ورخرخةُ الغيمِ تنزُّ نزيزَ الجرحِ من القلبِ

وتقطرُ كلَّ دماءِ الحزنِ

الدنيا السوداءُ علينا !

نتضرّعُ كالرهبانِ إلى قمرِ المقبرةِ النائي

والصوتُ المتلجلجُ في أعماقِ القلبِ العاني

بعذاباتِ مراثيهِ

يُعَزّينَا !

يُسقطنا عزفُ الناي عميقاً

في بئرِ العبراتِ المهجورِ

ويُرجِعُنَا العزفُ الموجعُ لكمنجاتِ الخسرانِ

إلى كهفِ مباكينا !

أصواتُ أسانا ترحلُ هادئةً

في سهلِ التنهيداتِ

وآخرُ ترجيعاتِ الشكوى

تنسابُ على دربِ العمرِ الراجعِ

كي توقظَ كلَّ الشجنِ الضائعِ

بين محانينا !

تتعرّفُ فينا الأمطارُ على ينبوعِ اليتمِ الدامعِ

والأشعارُ على وترِ الأنّاتِ الموجعِ

والليلُ على إيقاعِ زنوجتهِ النازفِ

والنغمِ المطعونْ !

أغرابَ ..

يمرُ بنا أيلولُ شجيَّ الريحِ

وتحملنا الشتويّةُ في نعشٍ منحوتٍ

من خشبِ الشيحِ

ويتبعُ دربَ مدامعنا الراحلَ

أوحشُ ما في الكونْ !

مدفونونَ كأغنيةٍ متعبةٍ

في أعماقِ ليالي الحزنِ

وفي أعماقِ كآبتنا

حزنُ الكونِ بأجمعهِ مدفونْ !

أغرابٌ و بعيدونْ .

جرار الشتاء العتيقة

حاملينَ جرارَ الشتاءِ العتيقةَ

نرتحلُ اليومَ لا نادمينَ ولا أسفينْ !

حاملينَ جرارَ الحنينِ المليئةَ بالحسراتِ ،

وحزنَ الفراقِ الكبيرَ

نجرُّ مواويلنا كالمحاريثِ

فوق السهوبِ الجريحةِ

والأرضُ سفّانةٌ للرحيلِ

نجرُّ العذاباتِ تلو العذاباتِ

في طرقاتِ المغيبِ البعيدِ

ونأفلُ كالبشرِ السودِ فوق اسوادِ الأراضينْ !

حاملينَ جرارَ الأسى

وقدورَ السنينِ المليئةَ بالجوعِ

نرتحلُ اليومَ في مُقفرِ الأرضِ

والحزنُ يملأُ جوَّ المغيبِ

مواويلنا السودُ تعلو ممزّقةَ الصوتِ

فوقَ الحقولِ الحصيدةِ

والأغنياتُ التي أجهشتْ بالبكاءِ

تدقُّ كؤوسَ الصدى بكؤوسِ الأنينْ !

وهنالكَ خلف حفافي المدى

تتراءى البواخرُ كالذكرياتِ المسنّةِ

فوق صحارى الرحيلِ

ويبزغُ قلبُ الوداعِ البعيدُ

قبالةَ أرواحنا

كهلالِ القفار الحزينْ !

لا غيومَ تقطّرُ أمطارها الباكياتِ

على ترعِ الدمعِ

لا أمّهاتُ الأغاني

تهزُّ الغرابيلَ ناخلةً وحشةَ الروحِ

لا شيءَ غيرُ النواعيرِ _أرملة الأمسياتِ —

تدوّرُ ماءَ المرارةِ في محضنِ الأرضِ

عازفةً بالعنينِ المعذّبِ

لحنَ الموات الضنينْ .

لا رفوفُ الحمامِ تحطُّ على شرفاتِ الوداعِ

لتبكي فراقَ القرى في الغروبِ

ولا طرقاتُ الخطايا التي تتقهقرُ بين الجرودِ

تدلُّ جياعَ القوافي

إلى ذلكَ المطلعِ الطلليّ

المعلّقِ فوقَ جدارِ الدموعِ

ولا الريحُ قادرةٌ أن تخطَّ على الأرضِ

مسرى الخلاصِ لقافلةِ الضائعينْ .

رغمَ كلّ المرارةِ في الريحِ

رغم لهيبِ الحرارةِ في مجمرِ الروحِ

رغمَ العزاءِ الذي تتهاطلُ غصّاتُهُ

عبرةً عبرةً من غيومِ الشمالِ المضلّةِ

يرخي العنانَ لغصّاتهِ في المساءِ

غريبُ المنافي الحزينْ !

كلماتُ البكاءِ الكبيرةُ مكتوبةٌ

في جدارِ المغيبِ الرماديّ

يقرأوها الراحلونَ

وأشجارُ من فارقونا

يرفرفُ منطوقُهَا الميتُ

فوقَ العراءِ المعبّدِ بالدمعِ ..

يا حاملينَ متاعَ الكهولةِ

هل تسمعونَ المراثي التي تتكرّرُ أنغامها

في براري الأسى المقفره ؟

وصراخَ الشرورِ التي تتراقصُ

رقصَ الذئابِ على الجمرِ ..

هل تسمعونَ غناءَ السنابلِ

فوق السهولِ

التي تتموجُ خلفَ اخضرارِ البحيراتِ

أو تتهادى شراشفها

كالسحابةِ فوق سماءِ القرى ؟

يا بكاءَ الكمنجةِ بعد فراقِ الأحبّةِ

رحّمْ رثاءكَ

إنَّ حنوَّ المحبّينَ في رقّةِ القبّره !

لم تعدْ هذه الريحُ غير شبّابةٍ للحفيفِ

الذي تتنابحُ وحشتَهُ في عراءِ الخريفِ..

وتلكَ الجذوعُ التي تذرفُ الدمعَ مرّاً

سوى رُحّلٍ تتأرجحُ مثل المراكبِ وقتَ المغيبْ .

حاملينَ جرارَ الشتاءِ العتيقةَ

نرتحلُ اليومَ كالغرباءِ ،

غريباً يجرُّ غريبْ !

حاملينَ جرارَ البكاءِ الكبيرةَ

نرتحلُ اليومَ كلٌّ إلى مقبره .

نهريّةُ ريحٍ مترعةٌ بالحسرات

لم يبقَ سوى صوتِ الريحِ

على شبّاك الليلِ ،

وآخرِ أغنيةٍ تهتزُّ على إيقاعِ

الحزنِ النائمِ في (حُزْنيَّةِ)

ريحٍ رقراقه !

لم يبقَ سوى رجعِ الريحِ

ووجهِكَ مجروحاً يتراءى

في المطرِ الضائعِ

يارقراقَ عيونِكَ

ما رقرقتَ لغربتنا غيرَ الدمعِ ..

هجرناكَ وأتعبناكَ

وعلمناكَ تدبُّ على دربِ البردِ

فسافرتَ كلحنِ وداعٍ مكسورٍ

يُشقيكَ فراقُ الدارِ وتشتاقهْ !

لم يبقَ سوى روحٍ مترعةٍ

بمراراتِ الغربةِ

تكتبُ بالدمعِ على سطرِ الحسراتِ

المهدورِ

مراثي مثخنةً بالأشجانِ

وأوجاعَ قلوبٍ مشتاقهْ !

يا رقراقَ دموعكَ

تشتوكَ الرخرخةُ المنغومةُ للمطرِ البردانِ

فينسابُ أساكَ سخيّاً

بين الحسرةِ و الإشفاقه !

سافرتَ بعيداً وتركناكَ

تبيعُ الأشعارَ المجروحةَ

في أسواقِ الغربةِ

آهٍ يا بنَ حفافي الحنطةِ

كيفَ الشوقُ بعيداً عن وطنِ الأعشاشِ يُعاشْ ؟

كانَ ينامُ على تسريحةِ شعركَ

عصفورُ الشمسِ الأشقرُ

مغموراً بالدفءِ

ووشوشةِ الشجنِ النائمِ في الأعشاشْ ..

والآنَ تميمُ وحيداً في صحراءِ الوحشةِ

يا همّاشْ !

ربّيناكَ كشتلةِ ريحانٍ

في أحواضِ الدارِ

ومرجحناكَ كفرخِ الطيرِ

مع الأشجارِ

فحلّقتَ بعيداً ..

آهٍ يا طيرانَ الهدهدِ في الواحاتِ

ألم يشجيكَ حفيفُ الريحِ

الراحلُ في حقلِ نخيلْ ؟

وثقيلٌ قلبكَ في ميزانِ الحزنِ ثقيلْ !

ماتَ كثيرٌ من حزنكَ

بين منافي الليلِ

ولم يبقَ سوى عصفورٍ

يبكي قربَ مخدّةِ دمعكَ

من جعلَ الترحالَ بعيداً

وطريقَ الهجرةِ يا ليلُ طويلْ ؟

ضيّعتَ طريقَ العودةِ كالغرباءِ

وأوغلتَ عميقاً في الغيبِ

ولكنكَ آخرَ ساعاتِ الليلِ

تعودُ لتنقرَ شبّاكَ البيتِ

وتخطرُ في البالِ كموّالِ هديلْ .

يا ما أحببتُ رجوعَكَ للدارِ

ولو أغنية تملأُ شبّاكَ العشقِ مواويلْ !

يا ما أحببتُ رجوعكَ

يا زهرَ الحنطةِ في الصيف

لتملأَ بالزيتِ فوانيسَ السهراتِ

وتوقظَ بالضحكات فضاء الليلْ ..

وتُشَوّقَ بابَ البيتِ بأجملِ إشراقه .

يا رقراقَ عيونكَ

والدمعُ الهاطلُ يا رَقْرَاقَهْ !

يا رقراقَ عيونكَ بين الغربةِ والأغرابْ !

علّمناكَ زراعةَ بستانِ الحزنِ

وشتلاتِ اللوزِ على ترعِ الدمعِ

فلم تعقدْ أزهاركَ باللوزِ

لماذا لم تعقدْ يا شجرَ الأحبابْ ؟

كغريبٍ تجلسُ قدّامَ البحرِ

وتسألُ عن أسبابِ رحيلكَ

لكنكَ لستَ تُجابْ !

كلُّ عذاباتِ الناسِ لها أسبابٌ

إلا أسبابُ عذابكَ

ليسَ لها يا مهجورُ جوابْ !

آهِ على عنّاتِ حنينٍ

من مزمارٍ مبحوحٍ يا زريابْ !

لكأنّي أسمعُ صوتكَ في هدآتِ الليلِ

يرنُّ وراءَ البابْ !

.. يا ما أحببتُ رجوعكَ

مثل أغاني العودةِ من بابِ الدارِ

المفتوحِ على الغيّابْ !

ورسمتُ على شمسِ المغربِ اسمك بالسكّينِ

فسالَ دمُ المغربِ

ممزوجاً بالنرجس والعنّابْ .

كمْ أغنية تشتاقُ إلى صوتكَ

ياذا الصوت الطيبِ

كمْ تنهيدة ليلٍ تتنهنهُ بين شفاهكَ

يا بنَ الخضرةِ والأعشاشْ ؟

يا همّاشُ رحلتَ وراءَ نعوشِ الليلِ

وشيعناكَ بعيداً في الغربةِ

والغربةُ ليسَ تُعاشْ !

وتظلُّ تهيمُ وحيداً في صحراءِ العزلةِ

يا همّاشْ !

في الغربةِ من يطرقُ بابكَ

حينَ تُطيلُ سآمةُ ساعاتِ الليلِ

عذابَكْ ؟

من يؤنسُ روحكَ

حين يحينُ مواتُ الأحلامِ

ويرحلُ آخرُ أصحابكَ ..

من يحرسُ يا قرّةَ عينِ الباكينَ

غيابَكْ ؟

من يشتاقُ أواخرَ أوقاتِ المغربِ

حين يؤوبُ الناسُ

إلى ضمّكَ بالقلبِ

سوى أمّكَ ..

من يشتاقكَ كي يسقيكَ

بكأسِ العينِ شرابَكْ ؟

يا نهرّيةَ ريحٍ تترعرعُ بين حقولِ الحنطةِ

كمْ أغنية تشتاقُ إلى صوتكَ

كم نسمة صبحٍ تعتلّ إذا هزّتْ

فوق حبال الصيف ثيابكْ ؟

أما الآنَ فوجهكَ مصلوبٌ

في المطرِ المذروفِ

وروحكَ روحُ غريبٍ

ينعى في النأي فراقهْ !

لم يبقَ سواكَ على شبّاكِ الليلِ

ولحنُ وداعٍ مبحوحٍ

ينعى في الليلِ الضائعِ

غربتَهُ ورفاقه !

يا رقراقَ عيونكَ والدمعُ الهاطلُ يا رقراقه !

حمّلتَ متاعكَ في نعشِ الليلِ

وشيّعناكَ بعيداً عن وطنِ الأعشاشْ ..

وظللتَ تهيمُ وحيداً

في صحراءِ العزلةِ

يا همّاشْ .

تنهيدةُ نايٍ محترقٍ

دائماً كنتُ ألمحها

وأنا شاردُ البالِ في شارعِ الأربعينْ

تتساقطُ منها الدموعُ التي اعتصرتها

ليالي العذاباتْ

تتساقطُ في الطرقاتْ

وتدوسُ على دمعها – غير داريةٍ –

أرجل العابرينْ !

دائماً كنتُ أسمعها

تستجرُّ بصوتٍ ذليلِ الأسى ،

بأغاني المرارةِ

رتلاً من الأمّهاتِ الحزيناتْ ...

فإلى أين تمضي

بهذي النفوسِ التي يتجمّدُ فيها السوادُ

وبؤسُ المساءِ الضنينْ !

آهِ كلُّ النساءِ اللواتي يُجدنَ مع الفجرِ

طهوَ العجينْ ..

يتسوّلنَ في مركزِ العونِ خبزَ الإعاناتْ .

يا صديقي الصغيرْ!

صلّ في آخرِ الليلِ للهِ

علّ الأخيرْ

يعصرُ النورَ من روحهِ في عيونِ العماةْ !

مشهدُ الشمسِ عندَ المغيبِ

تغصُّ مصابيحُه بالأسى والعذابْ!

وهنالكَ في شارعِ الأغنياتِ الجريحةِ

حين نمرُّ ..

تحت قوسِ السآمةِ والألمِ المرِّ

نسمعُ موّالَ حزنٍ قديمٍ

ونحدسُهُ مثلَ سرّْ

فكأنَّ النساءَ الحزينات

مازلنَ يعبرنَ بين البيوتِ

ولا يطرقنَ بابْ..

وكأنَّ الفتاةَ التي سرقتها أيادي الضبابْ

ما تزالُ على حزنها الميتِ شاردةً

في الشوارعِ لكنها لا تُرى ..

تتسوّلُ بين الدكاكينِ منسيّةً

لا تُباع ولا تُشترى ..

تسألُ الناسَ عن رأفةِ القلبِ

عن راحةِ الروحِ

عن وحشةِ الاغترابْ .

كلنا نعبرُ الشارعَ الميتَ

في وحشةٍ واغترابْ

..نقرأُ الموتَ في نظراتِ المسنّينَ

والعابرينْ ..

ونخمّنُ أن الذي يعبرُ الآنَ

ليسَ شخصاً تماما

ولكنهُ محض ظلٍّ يفتّشُ عن ملجأٍ للأمانْ ..

محضُ ظلّ يتابعُ وقعَ البكاءِ

الذي يتجاوبُ ممتلئاً بالمرارةِ

في شارعِ الأربعينْ !

فإذا نعست ساعةُ الليلِ

وانطفأت في المطاعمِ والواجهات الجميلةِ

كلُّ الشموعْ

راحَ ظلُّ الغريب يقطّرُ من قلبهِ

الدمعَ في صحن جوعْ

ويمكثُ مثل الضريرِ بزاويةِ الليل

يجترُّ وحشةَ هذا الموات

مصغياً لعذاباتِ شحّاذةٍ

تتذلّلُ في الطرقاتِ بصوتٍ حزينْ!

لم أعد أعبرُ الآنَ في شارعِ الأربعينْ

لم أعدْ في ليالي التذكّرِ أسمعها

وتلاشت بقلبي حلاوةُ هذي الحياةْ !

والعذاباتُ تلو العذاباتِ

تنسابُ في خاطري

كشريطٍ من الذكرياتْ

لم أعد أسمعُ الآنَ غيرَ النواحِ

ونهنهةِ المتعبينْ ..

وأغاني المرارةِ ينشدها في الشوارعِ

رتلُ النساءِ الحزيناتْ!

كالغريبِ نظرتُ كئيباً إلى شارعِ الأربعينْ

فرأيتُ نفوسَ المساكينِ في سكرةِ الليل

تبحثُ قربَ جدارِ الرمادِ

البدائيّ عن ملجأٍ أو نفقْ ..

كنتُ أمضغُ خبزيَ ممتزجاً بالدموعِ

وقلبي من شدةِ الخفقانِ اختنقْ

فقلبتُ على ذلّ هذا الطعامِ الضنينِ الطبقْ

وتلاشى شرودي الحزينْ .

شلال الأغنية الموزون

تحتَ سكينةِ ليلٍ صافيةٍ

وسماءٍ زرقاء اللونْ ..

جلستْ قطعةُ موسيقى بيضاءُ

بقربِ أخيها الإيقاع ..

وراحا يستمعانِ سواسيةً

لبكائيّةِ صوتٍ محزونْ !

كانَ الشاعرُ والغيمةُ والحسونْ

يقفونَ ببابِ الكوخِ المفتوحِ

على الريحِ

تراودهم أحلامٌ خضراءُ

وتحملهم في رحلتها الأحلامُ .

كانوا ينتظرونَ بذاتِ اللحظةِ

أغنيةً سارحةً في نشوتها البيضاءِ

فلم يستمعوا لنحيبِ الوحشةِ

في جبِّ الليلِ

ولا انتبهوا للمرأةِ وهي تغطّيهم

بغدائرها السوداءِ

وترخي أهدابَ ضفائرها

لينامو ا .

كانَ الشاعرُ

يتأمّلُ في نشوةِ حزنٍ صافيةٍ

أسرابَ نجومٍ سابحةٍ كالرؤيا

في مائيّةِ هذا الكونْ

والغيمةُ كانت كالدمعةِ باكيةً

تحفرُ عتمتها في قلبٍ مجروحٍ

وتذوبُ بعفّتها في صمتٍ

وسكونْ

فقط الحسونْ

كانَ يرفرفُ فوق حفافي الليلِ

وينسجُ بالموسيقى

شلّالَ الأغنيةِ الموزونْ .

التأمّل في الأمسيات البعيدة

يا أمّيَ اليوم ملءُ الليلِ

أغرابُ

وأقربُ الناسِ للمشتاقِ أصحابُ

وأوجعُ الدمعِ في تذكارِ

من رحلوا

وأصعبُ الحزنِ في ذكرى الألى غابوا

وحقُّ دمعكِ لم تنضبْ مدامعنا

وأجملُ الناسِ في العينينِ غُيّابُ

هبّتْ رياحُ الشجى

والشوقُ يرجعني

إلى الطفولةِ أقفو درب من آبوا

كَمْ حنَّ قلبي للحنٍ

أنتِ بكوتُهُ

وقد يضمُّ شتاتَ الأهلِ أغرابُ

كلُّ القلوبِ على قلبي أرقرقها

من فرطِ حزني

وما للحزنِ أسبابُ

في قرّةِ العينِ

تغفو الروحُ راضيةً

وفي القلوبِ زلالُ الدمعِ ينسابُ

أنتِ التي عشتِ عمراً

لا رجاءَ لهُ

وإنني عشتُ مجروحاً

بمن غابوا .

شبّاك موسيقى بعيد

يا ليتني شبّاكُ موسيقى

يسافرُ خلفَ أحزانِ البعيدْ !

ياليتني قنديلُ ياقوتٍ

على شبّاكِ سهرتها الوحيدْ !

لأقولَ للبنتِ الوحيدةِ

حينَ تهدأُ هدهداتُ الليلِ

عن شجني

ويحملني جناحُ الريحِ من طللٍ

إلى طللٍ

كإنشادٍ فراقيٍّ طويلْ ..

كوني قرنفلةَ الخريفِ

وزهرِ الذاوي

ليرجعَ عندليبُ الدمعِ

من حزنِ البعيداتِ

اللواتي ينتظرنَ مرورَ أيّامِ الرحيلْ !

كوني حفيفاً هادئاً كالريحِ

في شجرِ القرى الغافي

لأسمعَ كالغريبِ ترقرقَ الآهاتِ

في ناي الهديلْ !

كوني غديراً للأغاني

كي يصيرَ العشقُ غيتاراً قتيلْ !

وتقولُ لي البنتُ الوحيدةُ

ليتني شبّابةٌ مجروحةُ النبراتِ

تعبرُ كلَّ ريحٍ حقلَ وحشتكَ الوحيدْ !

ياليتني شبّاكُ موسيقى

يسافرُ خلفَ موّالِ البعيدْ !

لو أستطيعُ عزفتُ في الطرقاتِ

موسيقى المسافرِ

كلّما عبرَ الطريقَ مسافرانْ ..

ولو الطريقُ اليومَ يوصلُ عابريهِ

إلى الغيابِ

لضمَّ قلبي طفلَ قلبكِ كالغريبِ

وسارَ قلبانا على دربِ الغروبِ

كما يهاجرُ راهبانْ .

لو كنتُ أعرفُ

أنَّ عمركِ راحلاً كالغيمِ

ما اخترتُ الرحيلَ

ولا مشيتُ اليومَ منسيّاً

على شطآنِ هذا البحرِ

أسألهُ الأمانْ !

أو كانتِ الأشجارُ تذكرُ زارعيها

عدتُ فلاّحاً نحيلاً في حقولِ الليلِ

أزرعُ حسرتي في كلِّ آنْ !

لكنَّ أيّامي وداعٌ ضائعٌ

ورسائلي ضاعتْ تباعاً في جواريرِ البريدْ !

يا ليتَ ليْ كالريحِ مفتاحٌ

لأفتحَ راحلاً

بوّابةَ البحرِ البعيدْ !

أأظلُّ أدشرُ في الدروبِ

ولا أرى خلفَ الرواحلِ

غيرَ أبوابٍ مشرعةٍ على الفقدانِ

تهجرها القرى ؟

أأظلُّ أملأُ بالدموعِ محابري

وأخطُّ في ورقِ الضياعِ

قصائدَ الهجرانِ

لا المعنى يُباعُ ولا القوافي تُشترى؟

أأظلُّ أنبشُ في ترابِ الصيفِ

بحثاً عن كلامٍ متعبٍ

أخفيهِ في كتبي

وأودعُ في الشتاءِ جميعَ أقلامي الثرى ؟

أأظلُّ أنصتُ للرياحِ ورجعها

في الحورِ إذ ترثي الأُلى ضاعوا

وأرجعُ كالغريبِ إلى دياري

القهقرى ؟

أأظلُّ أنتظرُ الرحيلَ

وحينَ تبدأُ آخرُ العرباتِ رحلتها

يطولُ وقوفيَ الرعويُّ

في أطلالِ ماضيَّ السعيدْ ؟

وتشدّني البنتُ الوحيدةُ

كي أفكّرَ من جديدْ ؟

ياليتنا طيرانِ بريَّانِ

يندفعانِ بالتحليقِ في حلمٍ سعيدْ !

يا ليتنا ماءٌ يسيلُ على الحصى الصافي

نقيّاً ..(أزرقاً) .. مترقرقاً

بينَ الجداولِ والحفافي

ليتنا سهلٌ وينبوعٌ صباحيٌّ

وموسيقى مموسقةٌ

تُسيّلُ في الغديرِ توائمَ الغيماتِ

والصورَ السعيدةَ في سماءٍ طاهره !

يا ليتنا قمحٌ لتنقرَ قبّراتُ الحقلِ أدمعنا ،

ويلتقطَ القطا قلبي وقلبكِ

مثلَ حبّاتِ النجومِ المسكره !

يا ليتني بَوَّابُ بستانِ الخريفِ

لأسألَ الشجرَ الجريحَ

متى يحينُ مرورُ أسرابِ الغيومِ العابره ؟

ومتى سيرجعُ ذلكَ المطرُ العتيقُ

بدمعهِ المدرارِ

كي تبكي نواعيرُ الغروبِ الدائره ؟

يا ليتني بَوَّابُ أيّامٍ بلا أسماءَ

تؤنسني أواخرَ أمسياتِ الصيفِ

هبّاتُ الرياحِ الداشره !

لا آخرُ الأعشاشِ في الأشجارِ تعرفني

ولا أيلولُ ذو الشجنِ الشريدْ .

يا ليتني شبّاكُ موسيقى

يصفّي الليلَ في كأسٍ بعيدْ !

عُدْ بيْ إلى شجرِ الحواكيرِ العتيقةِ

يا حفيفُ

لكي أربّي صوتيَ المبحوحَ في أعشاشِ قبّرةٍ

إذا جاءَ البكاءْ !

عدْ بي إلى أيلولَ

كي أتأمّلَ الصفصافَ

وَهْوَ يهرهرُ الأوراقَ صفراً

قبلَ أن تصلَ النعوشُ مع الشتاءْ !

عُدْ بي إلى الماضي

لأجلسَ بانتظارِ كهولتي

ووصولِ مركبةِ الوداعِ

يجرُّها فرسُ المساءْ !

عدْ بي إلى عمرٍ تطيرُ شهورُهُ

كالغيمِ مسرعةً

بأجنحةِ الرثاءْ !

عدْ بي إلى ليلِ المواويلِ

الذي نضبتْ بهِ

من كثرةِ الإنشادِ حنجرةُ الغناءْ !

عدْ بي إلى نايٍ فراتيٍّ

تسيلُ دموعُهُ بينَ المرارةِ والبكاءْ !

عدْ بيْ إلى قمرِ الطفولةِ

في المساءاتِ البعيدةِ

كي أقطّرَ خمرةَ الأقمارِ في قدحي السعيدْ !

عدْ بيْ بعيداً في البعيدْ !

لأقولَ للبنتِ الوحيدةِ

حينَ يرتحلُ القطا

لا تُرجعي قلبي إلى قمحِ الطفولةِ

في نهاياتِ الحقولْ !

لا تتركي ريحَ الكمنجاتِ الجريحةَ

تملأُ الأحراشَ

ترجيعاتُهَا ترثي مصيراً ضائعاً

وقتَ الكآبةِ في الأفولْ !

عيناكِ عنقودا دموعٍ أزرقانِ

وصوتكِ جرسُ السنونو

حينَ يسبحُ في السهولْ .

أرخيتِ نهرَ الليلِ مجروحاً

على قَمَرَيْ غروبٍ نائمينِ

كنومِ عصفورٍ على شبّاكِ موسيقى بعيدْ .

يا ليتنا أغنيّةٌ منسيّةٌ كالشوقِ

في ذاكَ البريدْ !

يا ليتنا غيمٌ يسافرُ كالقطاراتِ الحزينةِ

كلّما ابتدأَ المسافرُ من جديدْ !

عزفٌ حزينٌ على حجر الرحى

دارتْ جراحُكِ يا مرارةُ

في الرحى

ودموعنا يا عينُ يعصرُهَا المِرَارُ

من ذا يُسرّي الحزنَ عن روحِ الغريبِ

ومن سيؤنسُ في الأماسي يا ديارُ

رَجْعٌ يُميتُ القلبَ رجعُك

يا رَحَى

ما أوجعَ الآهات

تَسْحَنُهَا الحجارُ

لا وحشةُ الأيّامِ

تهدأُ في القلوبِ

ولا المطارحُ بعدما ارتحلوا تزارُ

دعني أسافر في مواويلِ القرى

وقطاري المجروحُ

يتبعهُ قطارُ

قَلِقٌ ...

أقطّرُ آخرَ العبراتِ من قلبي

وتقفو دربَ هُجْرَاني القفارُ

الفهرس

وتريّة لأحزان بلادي	2
لا غريب الدار يعرفنا ولا الجار	10
التحديق من شباك الشيخوخة	20
الأغاني العابره	23
رفقا يا روح برقراق العبرات	26
موال فراق	35
كلمات الرثاء الكبيرة	37
البكاء على باب الغروب	40
الكتابة بالحبر المجروح	50
حمام الوحشة الزاجل	58
ترجيع على وتر جريح	63
أغنية الريح المحترقه	64
يا هواء حول الحور إلى نايات	72
جرار الشتاء العتيقة	78
نهرية ريح مترعة بالحسرات	82
تنهيدة ناي محترقة	90
شلال الأغنية الموزون	94
التأمل في الأمسيات البعيدة	96

شباك موسيقى بعيد 98

عزف حزين على حجر الرحى 107